

الأدباء ليسوا مطالبين بتوثيق الحقائق

الرواية لها حقيقتها الخاصة ولا تحاسب إلا على مدى صدقها الفني

من الروايات التي يثار حولها الجدل منذ صدورها هذا العام "تيزي، حياته الجديدة" لكاميل دو توليدو. هذه الرواية، التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة غونكور، استحسنها النقاد في معظمهم، ولكن بعضهم نظر إليها من زاوية الأمانة التاريخية، ومدى التزامها بالحقيقة في سرد سيرة الكاتب وعائلته. فهل من وظيفة الأدب الروائي أن يقدم حقائق تاريخية، ولو على المستوى العائلي، أم أن الحقيقة لا تعنيه كثيرا لكونه في مفهومه الجوهري من وحي الخيال؟

من مهام الأدب أن ينقل الحقيقة، وباتت الغاية مدى تقمص الكاتب للشخصية وتطابق سيرته مع ما يروي.

من هذه الزاوية وقع التعامل مع رواية "تيزي، حياته الجديدة" لكاميل دو توليدو، التي تروي تمرقا عميقا يعيشه النطل تيزي بعد انتحار أخيه الأكبر، ثم وفاة أمه يوم نكرى ميلاد أخيه، ثم وفاة أبيه. والحياة الجديدة التي يتوق إليها هي الهروب من كل ما يذكره بالموت، تحولت في نظره إلى مقبرة، والعيش مع أطفاله في شرق فرنسا، سينجيانه من الذكريات الأليمة، وأنه سيطوي الماضي ويفتح عهدا جديدا من الذعة والسعة. ورغم انتقاله من باريس إلى جسد، الذي اكتسحته الأم حار في علاجها أو تسكينها، يعيده إلى الذاكرة، فيدرك أنه لا يستطيع أن يلغى الماضي، وأن تسكين الآلام لا يتم إلا متى سلط الضوء على لغز الموت، وخاصة انتحار أخيه، الذي يستهل روايته بمناجاته "قل لي يا أخي، من يرتكب جريمة من يقتل نفسه؟" وهي التي يكررها مرارا كاللزمة، فمضى يحفر في جينالوجيا عائلته، وهي عائلة بورجوازية قال إنها يهودية، انتمجت في المجتمع الفرنسي منذ مطلع القرن العشرين، من طالماي دو توليدو إلى إستر والدة تيزي.

وراج بطل الرواية يستحضر تاريخ العائلة الذي تخللته ماس كثيرة من فقدان أحد أبنائها في سن الطفولة إلى انتحار الابن الأكبر موررا بصوت ابن آخر في جبهة القتال في أواخر الحرب العالمية. وبدل حياة ما بعد الحرب التي عقبتها سنوات من الرضاء والازدهار، لم تعرف هذه العائلة سوى الماسي والالام، وهي الثيمة التي اتخذها الكاتب جوهر عمله.

إن يقول "الالام، ذلك ما يقودنا ويوجئنا، فهي تشكل مجتمعة الوجه الآخر لهذا العالم الذي يؤمن بثرواته ونفوذ".

أبوبكر العبادي
كاتب تونسي

منذ أعوام، طغى على المشهد الروائي الفرنسي هوس الكتابة عن الذات وعن الغير وحتى السرد التوثيقي بطريقة تنأى كثيرا عن التخيل الصرف، وكان القرائح جفت، أو أن كل واحد بات يرى في نفسه سر العالم، وفي سيرته تجربة فريدة لا بد من إطلاع الناس عليها.

النقاد، أو جلمهم، تعاملوا مع رواية «تيزي، حياته الجديدة»، كوثيقة تاريخية وتناسوا أن الأدب يقترح وهم الواقع

وكانت النتيجة أن انتقل المهتمون، نقادا وإعلاميين، من الحديث عن تيارات ومدارس جديدة ورؤية مبتكرة لمقاربة الفن الروائي، إلى لغو لا يقدم ولا يؤخر؛ مرة عن مدى أمانة هذا الكاتب أو ذلك في نقل واقع مخصوص، كما حدث لكروي دولوم الفائز بجائزة ميدسيس لهذا العام عن روايتها "القلب الاصطناعي"، إذ كان النقاش معها في أغلب وسائل الإعلام مركزا على حياتها كامرأة خمسينية عزباء، أكثر من اهتمامه بالرواية المتوجة وأسلوبها وفنائها. ومرة عن القضايا المرفوعة ضد بعض الكتاب لتعرضهم إلى سيرة أشخاص من وسطهم الثقافي أو الأسري، شأن إيمانويل كارير الذي استتبع روايته "يوغا" من شتى المسابقات، وقضت المحكمة بالا بعاد طبعها، بعد شكوى طليقتها.

سيرة تاريخية

صار الجدل يحوم حول البحث عن الحقيقة في الأدب، بعد أن تبنى أغلب الكتاب السردية التوثيقية، بدعى أن



الأدب في أصله خيال (لوحة للفنان سيروان باران)

قد نحاسب الكاتب على عناصر ثبتها الواقع الجغرافي والتاريخي، فلا نقبل أن يحل برج إيفل مثلا محل برج بيزا، أو أن يجعل بونابرت هو من شيد قصر فرساي، أو أن يورد مخترعات وصناعات لم توجد بعد في الزمن المسرود، أو يخطئ في وصف معالم شهيرة، ولكننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نحاسبه إذا أجرى الأحداث على نحو يخالف الواقع الاجتماعي الذي يتحدث عنه ولو كان لتلمع صورته، فكبار الكتاب قبله، من روسو إلى أندري مارلو ومارغريت دورا، موروا بنشأتوبريان والكسندر دوما، حرقوا الحقيقة الاجتماعية ليستأثروا بالدور الأجل. لأن الرواية لها حقيقتها الخاصة، ولا يحاسب الكاتب إلا على مدى صدقها الفني.

لقد فسّر دو توليدو اختياره هذه السردية التوثيقية بتراجع الرواية في شكلها التقليدي، وبكونه يبحث عن أدب له قوة السردية وتوجهها مع حق الإنزياح نحو التخيل، لأن سرد الأحداث والوقائع كما هي قد يصدم المتلقي، ولذلك فضل التمازج مع الموتى لخلق نوع من الإنزياح. ويقول في موقف المدافع عن مسعاه "أرفض أن ينظر إلى الواقع كحالة مدنية. لأن الواقع عندئذ سوف تحده الدولة، وهذا أمر إشكالي كبير".

كل ذلك لأن النقاد، أو جلمهم، تعاملوا مع هذا النص كوثيقة تاريخية، فراحوا يفتشون فيها عن الحقيقة، أو مدى مطابقتها محتواها للحقيقة، وتناسوا أن الأدب، حتى ما اندرج منه تحت خانة الواقعية، يقترح وهم الواقع.

بتركيا (أدرنة حاليا)، وهو الذي ورث عنه الكاتب اسمه دو توليدو. وما حديث الكاتب عن كون الحقيقة هنا "تتم في تلك الجذور اليهودية، التي تكتمت عليها العائلة" إلا قول باطل.

الحقيقة الخاصة

تتناول الأسئلة: "هل نحن أمام سيرة ذاتية، يروي من خلالها الكاتب حياته على لسان شخصية مخيلة هي تيزي، أم أننا أمام جينالوجيا عائلية أقرب إلى الأسطورة، فيها من الزيف فوق ما فيها من الصدق؟ وهل ننظر إلى الرواية كعمل تخيلي، رغم ما فيها من عناصر ذاتية، أم نحاسبها كسيرة فننتوقف عند مواطن الاختلاف والاختلاف في ما نعرفه عن الكاتب؟".

غير أن بعض النقاد، كالناقدة كلير بوليان، نظروا إلى الرواية من زاوية السيرة التاريخية الموثقة، إذ رأوا أن تلك السيرة العائلية محرقة، ورغم الوثائق التي أدرجها في روايته (أرشيف بحوي نسخ مخطوطات وصور فوتوغرافية وشهادات ميلاد) وبينوا أنه من جهة أنه يرجع نسبه في الحقيقة إلى أنطوان ريبو، مؤسس شركة دانون، وهو يساري من أسرة بورجوازية كاتوليكية من مدينة ليون، وكذلك الشان من جهة أبيه، رغم أصول يهودية بعيدة من أحد أجداده الغابرين كان قدم إلى فرنسا من أندريونبوليس

غير أن بعض النقاد، كالناقدة كلير بوليان، نظروا إلى الرواية من زاوية السيرة التاريخية الموثقة، إذ رأوا أن تلك السيرة العائلية محرقة، ورغم الوثائق التي أدرجها في روايته (أرشيف بحوي نسخ مخطوطات وصور فوتوغرافية وشهادات ميلاد) وبينوا أنه من جهة أنه يرجع نسبه في الحقيقة إلى أنطوان ريبو، مؤسس شركة دانون، وهو يساري من أسرة بورجوازية كاتوليكية من مدينة ليون، وكذلك الشان من جهة أبيه، رغم أصول يهودية بعيدة من أحد أجداده الغابرين كان قدم إلى فرنسا من أندريونبوليس



نقاد يحتفون بعبد الحميد بن هدوقة مؤسس الرواية العربية في الجزائر

المرأة بشجاعة دون نقاش. لم يكن يكتب ليرضى أو ليستجيب لرغبات سياسة متفاوتة في التفاؤل، بقدر ما كتب عن الأوضاع الجزائرية من أعماق الأعماق، فبالإضافة إلى كونه أحد المؤسسين للرواية العربية في الجزائر، نراه يعالج موضوع المرأة دون لف أو دوران، فكتب عنها وعن جسدها في روايته "ريح الجنوب" التي أدخل فيها المرأة كإنسان له دوره الكامل ودخلت كجسد".

الندوة الاحتفائية

تستضيف عدة دارسين لأعمال الكاتب بعنوان «الرواية الجزائرية.. من التأسيس إلى التكريس»

أما أحلام مستغانمي، فتقول "إن رواية 'ريح الجنوب' هي أول عمل إبداعي أدخل فيه المرأة، لها جسد وشهوات إنسانية، وأنها عضو فعال في المجتمع الجزائري". ويقول الناقد الفرنسي جان بول إيفري إن عبد الحميد بن هدوقة جزائري حتى النخاع لأنه يعكس هموم الطبقات والشرائح الاجتماعية وطموحاته عبر أعماله الأدبية، شعرا أو رواية. ووضع المرأة في المقام الأول، ذلك أنها أهم مدرسة، فالمرأة احتلت المكانة التي يجب أن تحتلها لا غير في أعمال بن هدوقة.

إلى اختيار جهة أخرى مقارنة بأقرانه من الأدباء الجزائريين. وكان الأغلبية يكتبون بالفرنسية، لكن بن هدوقة اختار العربية، ليؤسس فيها بدايات الأدب الجزائري الحديث والذي كان له بالغ الأثر في الأدب المغربي كل.

ويقول بن هدوقة عن أدبه "حاولت في ما كتبه على تواضعه، أن أعالج نقاط التمازج الرئيسية في الوضع الجزائري بصفة تدخل أكبر قدر من المستقبل في الحاضر، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والأشكال النابعة من مراكز خارجية، اعتقادا مني بأن الانطلاق من المعطيات التاريخية المحلية لكل قطر عربي لو زُوِّجت في أعمالنا الأدبية لأرجعت لنا شيئا من الكرامة، وجنبتنا كثيرا من مزلق الاستلاب، فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الألف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادي والسياسي. إن هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل عمالي الأدبية أعمل على معالجة الواقع المتمازج والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية مبتعدا بقدر الإمكان عن الإغتراب بما حققناه من إيجابيات".

نظرة عميقة كرسها الكاتب من خلال اشتغاله على الواقع الذي استثمر منه الجزئيات المتمازجة لبيني منها واقعا فنيا لا يختلف عن الواقع المعيش. وفي دراسة تحليلية مطولة قام بها الناقد الجزائري الطيب لعروسي، قال إن "بن هدوقة قد يكون الأدب الجزائري الوحيد من جيله الذي تناول

له عدة مؤلفات روائية وشعرية ومسرحية، وتعد روايته "ريح الجنوب" من أشهر أعماله الروائية والتي اقتبست إلى عمل سينمائي من إخراج الراحل سليم رياض ونال الفيلم نجاحا جماهيريا كبيرا.

ونشأ بن هدوقة في عائلة اشتهرت بالعلم في كامل المنطقة، حيث كان والده الذي تلقى العلم في جامعة القرويين بفاس في المغرب فقها ومعلما درس القرآن وأصول الفقه والأدب واللغة في مختلف قرى المنطقة بين برج بوعريش والسياسة وغيرهما. ويمكننا أن نفهم سبب إغراق أدبه في رصد مظاهر الحياة الجزائرية على بساطتها ويكل أوجهها من خلال قول بن هدوقة "إن طفولة الجزائريين الذين ولدوا بين الحربين العالميتين كانت صعبة يميزها واقع مؤلم وطبعها البؤس والتعاسة، خصوصا في الأرياف".

غير أنه يعتبر نفسه أسعد حظا مقارنة بنظرائه الآخرين لأنه نشأ في عائلة مثقفة نسبيا مقارنة بالوضع السائد في تلك الفترة. وكان لأبيه كما يقول "تكوين يشابه تكوين أعضاء جمعية العلماء المسلمين وإن لم ينسب إليها". وخلال صباه، التحق بن هدوقة بالمدرسة الفرنسية الموجودة في المنصورة. وبالإضافة إلى تدرسه كان يحفظ القرآن الكريم وأصول الفقه، بالإضافة إلى قصص "الف ليلة وليلة" وسيرة بني هلال والفية بن مالك وغيرها من الكتب، وهو ما دفعه

متغيرات وتحديات المجتمع والثقافة بالحكايات. وكما جاء في بيان منظمي الندوة، فإن بن هدوقة "يقدم بيننا من خلال منتجته الكبيرة، ومن خلال قيمه ونموذجه الأصيل الذي تناقلته الأجيال، فهو رجل ثقافة ورجل إجماع بين المثقفين، وواحد من أهم رموز الأدب الجزائري". وولد عبد الحميد بن هدوقة في 9 يناير 1925 بالمنصورة (ولاية برج بوعريش) وتوفي في أكتوبر 1996 في الجزائر ودرس بمعهد الكتانية بقسنطينة قبل الالتحاق بجامعة الزيتونة بتونس.



كاتب خلد تفاصيل حياة الجزائريين